الفصل الثالث والعشرون

الأعياد

تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقّة المظهر الإسلامى الذى يحيط بالحياة العامة ، فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية ؛ وكان معظم هذه الأعياد النصرانية صورة جديدة لمراسم قديمة للبلاد . وكثير من المواضع التى كان يحج إليها المسيحيون فى مصر وفى العراق إنما كانت مواضع مقدسة عند الوثنيين من قبل ، ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تعمل فى الأديرة الناشئة هناك إلا صورة جديدة لأعياد الآلهة القدماء ، ولم يَرْض الذين دخلوا فى الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يُحرموا من الاحتفال بهذه الأيام التى كانت تزدهى بها حياة آبائهم الوثنيين من قبل ، ولكن المسلمين خلافا للكنيسة المسيحية ، أنفوا فى الغالب من وضع الأساطير ، وقد تركوا النصارى يتصرفون فى أمورهم الدينية من غير تدخل فى ذلك ، واشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلّى من تلك الأعياد كما فعل آباؤهم من قبل ؛ فمثلا كانت أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه ، وكانت أعياد القديسين فى مختلف الأديرة أكثر الأعياد نصيباً من احتفال الناس ؛ ولكن هذه الأديرة كانت لا تخلو حتى فى غير الأعياد من الزوار الذين لا تربطهم بالدين صلة[1] . وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة ؛ مجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين ، وكثيراً ما يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب فى كلام الشعراء ، قال ابن المعتز :

بدير المطيرة نقرى المدا م لدى القس لما أتيناه زوراً

(١) كتاب الديارات للشابشتى ص ٨ ا .

وكان شراب القربان مشهوراً بنوع خاص ، ويقول ابن المعتز :

كم أردت التقى فما تركتنى خندريس يديرها طاووس

من شراب القربان يوصى الشمّ اسَ خزان بيتها والقسوس

ولم يكن الحال فى مصر يختلف كثيراً عما تقدم ، فقد أحصى إبراهيم بن القاسم الكاتب حوالى أواخر القرن الرابع معاهد اللهو بالقاهرة ، وذلك فى قصيدة له قالها يحن فيها إلى مصر ويذكر معاهد لهوها ، كصايد الغزلان بجانب الأهرام ، ومواخير الجيزة وجسرها ، وبستان القس وملعب دير مرحَنّا ، وأحسنها كلها دير القصير ، وكان على جبل المقطم ، وكان له منظر جميل ، وهو يقول فيه :

وكم بت فى دير القصير مواصلا نهارى بليل لا أفيق من السكر[٢]

وقد أمر أبو الجيش خمارويه الطولونى أن تُبنى له فى أعلى دير القصير طبقة لها أربع طاقات على الجهات الأربع[٣].

وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة ؛ ولابد أنه كان عيداً قديما من أعياد الأشجار وخصوصاً أشجار الزيتون[٤] ، وكان فى مصر يسمى عيد

---

(١) ابن المعتز (ديوان) ج ٢ ص ٤٦ ، ٥٠ . ويحكى شلتبرجر Schiltberger أنه وجد قساوسة الروم فى المملكة الإسلامية يشتغلون خمارين (انظر : Bibl des Literar Vereins s. 50 وكذلك كان الرهبان النصارى فى قرى الشام ... ون لنا النبيذ تحت ثيابهم .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩١ .

(٣) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٩ أ .

(٤) وفى القرن الرابع الميلادى كانت عادة الأطفال فى هذا اليوم ببيت المقدس أن يدوروا حول جبل الزيتون وبأيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون (انظر : Silvia pergrinatio s 91) ولا يزال المواردة إلى اليوم يذهبون فى يوم أحد الشعانين إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزيتون ، ويباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمناً أوفر ، فيجعل مقتنيها ابنه أو صبيا يحبه فوقها ، ويطوفون بها فى الكنيسة بين أصوات الفرح ، ثم يهجم القوم عليها ويأخذ كل منهم غصناً يحفظه للبركة . أما الأقباط فكانت عادتهم أن يقطعوا قلوب النخل وسعفه وأغصان =

الزيتونة فقط[١] ، وكانت الوصائف فى يوم أحد الشعانين يظهرون فى قصر الخلافة ببغداد متزينات فى ثياب جميلة غالية وفى أعناقهن صلبان من الذهب و بأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون[٢] . وفى القرن الهجرى كان رسم النصارى ببيت المقدس فى هذا العيد أن يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التى بالعازرية إلى كنيسة القيامة و بينهما مسافة بعيدة و يشقوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب مشهوراً ، و يركب والى البلد فى جميع موكبه معهم و يذب عنهم[٣] . وكان الرسم بمصر وسائر البلاد أيضاً أن تُزَيَّن الكنائس فى هذا العيد بأغصان الزيتون وقلوب النخل و يُفرَّق منها على الناس على سبيل التبرّك ؛ فمنع الحاكم بأمر الله ذلك فى بيت المقدس وفى سائر أعمال مملكته ، وأمر ألا تُحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخل فى كنيسة من الكنائس ، وألا يُرى من ذلك شىء فى يد مسلم ولا نصرانى[٤] . وكان الخميس المقدس يسمى فى مصر خميس العدس ، لأن عامة النصارى كانوا يأكلون العدس فى هذا اليوم ؛ وكان العدس يعتبر طعام الحداد ، وكان نصارى مصر يأكلونه فى كل يوم جمعة[٥] . وفى يوم خميس العدس كانت تضرب خراريت تفرق على أهل الدولة[٦] . وكان أهل

= الزيتون يوم سبت العازر ويضفرونها زيتونة كبيرة بالصلبان ويكللونها بالشموع ويرفعونها إلى محل إقامة البطريرك ، ثم توضع يوم الأحد أمام الهيكل ويبتدى البابا فى القداس ، وتحمل الشجرة إلى كل ركن من أركان الكنيسة الأربعة ويقرأ أمامها فى كل ركن من أحد الأناجيل الأربعة ، ثم يأخذ الناس منها على سبيل البركة ، وكان بعض يدورون بالزيتونة فى الأديرة والطواحين والأفران (مجلة المشرق ج ٨ (عام ١٩٠٥ م) ص ٣٤٢) .

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) الأغانى ج ١٩ ص ١٣٨ . (٣) يحيى بن سعيد مخطوط باريس ص ١١٨ ب .

(٤) نفس المصدر ، وكان من العادات الخاصة بالنصارى فى هذا العيد لبس الثياب البيض (ديوان الصريف الرقى ص ٩١٢) .

(٥) الأزارى ترجمة هتيفشنيدر فى Virch'ows Archiv S. 574 .

(٦) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٤٥٠ .

الإسكندرية فى يوم خميس العدس يخرجون إلى المنارة بما كلهم ، فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلهو ، ولا يزالون هناك إلى نصف النهار[١] . وفى الشام كان هذا اليوم يسمى الخميس الأزرق أو خميس البيض ، وكان يباع فيه بأسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان « فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ، وينتدب من جهة المحتسب من يرد عنهم »[٢] . وفى يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو شرقى بغداد بباب الشماسية على نهر المهدى ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره ، وهناك يدور الشراب ، وفى ذلك قال أحد الشعراء :

فتلاعبت بعقولنا نسوانه وتوقدت بخدودنا نيرانه
حتى حسبت لنا البساط سفينة والدير ترقص حولنا حيطانه[٣]

وكان عيد دير الثعالب فى آخر سبت من أيلول ، وهذا الدير يقع فى الجانب الغربى من بغداد عند الموضع المعروف بباب الحديد ، وكان لا يتخلف عن عيده أحد من النصارى والمسلمين ، لأنه فى أعمر موضع ببغداد لما فيه من البساتين والنخل والرياض ولتوسطه فى البلد[٤] ، وكان فى اليوم الثالث من تشرين الأول عيد القديسة أشمونى ، وكان يعمل بدير أشمونى بقطربل غربى دجلة ، وكان من الأعياد العظيمة ببغداد ؛ يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا خرج إليه ، كل على حسب قدرته ، فمنهم من يأتى فى الزبارب ، ومنهم من يركب الطيارات أو السميريات ، ويتنافسون فيما يظهرون به هناك من زينتهم ، ويباهون بما يعدونه لقصفهم ، ويعمرون ديره

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٧ .
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٦ ، والمدخل ج ١ ص ٣٠٥ .
(٣) كتاب الديارات للشابشتى ص ٤١ [illegible] .
(٤) نفس المصدر ص ٨١ ، وكتاب الآثار الباقية للبيرونى ص ٣١٠ .

وأكنافه وحاناته ، ويضرب لذوى البسطة منهم الخيام والفساطيط ، وتعزف عليهم القيان ، فيظل كل إنسان منهم مشغولا بأمره ، ومكبا على لهوه ، فهو أعجب منظر وأنزهه ، وأطيب مشهد وأحسنه[١] . وكان الغريب الذى يهبط بغداد ويسأل عن أعجب وأبهى ما يستحق أن يُرى فيها يُسَرّ ويتسلّى بأن ينتظر شهراً لرؤية عيد أشمونى . وكان عيد بربارة يُعمل فى أول الشتاء (الرابع من كانون أول) ، وكان المسلمون يعرفونه ، فيقول المقدسى إنه من أعياد النصارى التى يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول ، وبه يعرف وقت الأمطار ، ومن أمثال الناس : إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زمارة ؛ يعنى فليجلس فى البيت »[٢] ، والمقدسى يفتخر بأنه رأى عيد بربارة[٣] . وفى ليلة عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) وعيد الشمس كان يُحتفل بها بإيقاد النيران ، وقد تكلم ابن بابويه القمى الشيعى الفارسى المتوفى عام ٣٨١ هـ — ٩٩١ م[٤] عن العلة التى من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز ، وروى عن وهب بن منبّه أنه لما ألجأ المخاض مريمَ عليها السلام إلى جذع النخلة اشتد عليها البرد فعمد يوسف النجار إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة ، ثم أشعل فيها النار ، فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية حتى دفئت ، وكسر لها سبع جوزات وجدهن فى خرجه فأطعمها ، ومن أجل ذلك يوقد النصارى النيران ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز ، ولكن المسلمين كانوا يحتفلون أيضاً بليلة الوقود التى تُعرف بالسَّدَق[٥] والتى تكون بحسب قانون

---

(١) كتاب الديارات ص ١٨ أ ب ، والبيرونى فى الآثار ص ٢٩١ .

(٢) المقدسى ص ١٨٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥ .

(٤) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ٣٢ أ .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها .

مسعود لعشرة تمضى من بهمن ماه[١] ، وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا فى ليلة عيد الميلاد[٢] .

ويحكى ابن الجوزى فى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٢٨ م عن قوم من أهل عكبرا أنهم « اجتمعوا فى ليلة عيد الميلاد لإشعال النار على عادتهم »[٣] ، وجرت العادة فى القرن الرابع الهجرى بالتبخير ليلة الوقود لدفع المضرة ، وصار فى رسوم الملوك فى ليلته إيقاد النيران وتأجيجها ، وإرسال الوحوش فيها ، وتطيير الطيور فى لهبها ، والشرب والتلهى حولها ، ويقول البيرونى بعد حكايته لذلك « انتقم الله من كل متلذذ بإيلام غيره من الحاسين غير المضرين »[٤] . وكانت أشهر ليلة وقود فى القرن الرابع فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، ففى هذا العام أمر القائد مرداويج أمير بلاد الجبل فى غرب إيران قبل ليلة الوقود بمدة طويلة ، أن تجمع الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة ، وأن تنقل فى الوادى المعروف بزرين رود قرب أصفهان ، وأمر بجمع النفط والنفاطين والزوّاقات ومن يحسن معالجتها والعمل بها ، وتقدم بإعداد الشموع العظام ، ولم يبق جبل مشرف ولا تلّ ظاهر إلا وضعت عليه الأحطاب والشوك ، وصيدت له الغربان والحُدا وعُلّق بمناقرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطا ، وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع وأساطين عظام لم يُرَ مثلها ليكون الوقود فى ساعة واحدة على الجبال ورءوس الرِناعات وفى الصحراء وعلى الطيور التى تُطلق ، ثم عمل له سماط عظيم فى الصحراء التى يبرز إليها من داره ، وجمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزُيّن بما لم تجر العادة بمثله ، فلما فرغ من جميع ذلك وحضر الوقت الذى ينبغى أن يجلس فيه مع الناس للطعام ثم للشراب خرج من

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢٢٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ ، وأبو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ (ج ٢ ص ٢٨٨)
(٣) المنتظم ص ١٩٢ أ . (٤) الآثار للبيرونى ص ٢٢٦ .

منزله ثم طاف على كل ذلك فاستحقره واستصغر شأنه ، قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد فى فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحقرها وإن كانت عظيمة ، واغتاظ ودخل إلى خيمته ، واضطجع محوّلا وجهه إلى خلاف الباب والتف بكسائه لئلا يكلمه أحد[1] . وفى أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يفرّق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الحلاوة القاهرية وقربات الجلاّب وطيافير الزلابية وماء الورد والسمك البورى ، وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للفقراء فوانيس يحملونها فى أيديهم ولهم على ذلك درهم[2] . وكان يحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالا كبيراً وهو يسمى عيد الغطاس لأن كثيراً من النصارى كان يغطس فيه فى النيل ، وفى هذا اليوم نفسه لا تزال الكنيسة الرومية فى عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس ، وكان من الرسوم القديمة بمصر أن يركب متولى الشرطة السفلانية ليلة الغطاس فى موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ؛ فيطوف الشوارع وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى فى تلك الليلة ، وألا ينكدوا عليهم عيدهم ، وذلك أن النصارى كانوا فى سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل ويغطسون فيه ، وكان رسم الملكية خاصة أن يخرجوا من كنيسة ميكائيل التى بقصر الشمع إلى شاطئ النيل فى جمع وفير بالقراءة الملحّنة والصلبان المشهورة ويصلوا ويخطب الأسقف المرأس عليهم باللغة العربية ويدعو للسلطان « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب بها فى هذا العيد من الطيبة والفرح مالا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها »[3] . ويقول المسعودى فى ليلة الغطاس : « والليلة الغطاس بمصر شأن

(١) ابن مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ وما بعدها ، وأبو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ ، وهو يقول إنه كان فى ذلك السماط ألف فرس وألف رأس بقر .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) يحيى بن سعيد مخطوط بلوريس ص ١١٩ ب .

عظيم عند أهلها ، لاينام الناس فيها ، وهى ليلة عشر تمضى من كانون الثانى ، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس فى مصر والأخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها ، وقد أسرج فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو الألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط ، لايتناكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ، ولا تغلق بها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أنه أمان من المرض ونشرة من الداء »[1] . وكانت العادة أن يُضاء سوق الشماعين بإضاءة كبيرة ، وكانت حوانيته لا تزال مفتّحة إلى نصف الليل يقصده كثير من الناس ، وكان يجلس فيه فى الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين لهن سيما يعرفن بها ، وهى لبس الملاآت الطرح وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر ، وكُنّ يعانين الدعارة[2] . وفى عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٥ م نزل أمير المؤمنين الظاهر لنظر الغطاس ومعه الحُرَم ، وضرب بدر الدولة متولى الشرطتين خيمة للخليفة وحرمه ، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل فى الليل وكان وقوداً كثيراً[3] . وكان عيد الأحد من الصوم المسيحى عيداً من أعياد اللهو عند المسلمين ، وكان يُعمل فى دير الخوات بعكبرا المشهورة بنبيذها ، ويبلغ اللهو أقصاه فى ليلة الماشوش « وهى ليلة تختلط النساء فيها بالرجال ، فلا يردّ أحد يده عن شىء ، ولا يرد أحد أحداً عن شىء ، وهو معادن الشراب ومنازل القصف

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٩٦ . (٣) نفس المصدر نقلا عن المسبّحى .

ومواطن اللهو»[١] . وقد تكلم ابن خلدون ، مع أنه من المتأخرين ، عن شيء يسمى الكرج ، وهو تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكرون ويفرون ويثاقفون[٢] . وكان فى يوم الأحد الرابع من الصوم عيد دير دُرْمالس ، وكان يجتمع إليه نصارى بغداد ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم ، وكان الناس يقيمون فيه الأيام[٣] .

وكان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر عيد سرعان ما اتخذه المسلمون وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم ، ولكن حدث فى عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٥ م أن اشتد الغلاء فامتنع التجار من الدفع ، فأمر الخليفة الظاهرُ التجار بأن يدفعوا ماجرت به العادة ، وأن يُطلق للمحتفلين ضعف ما أُطلق لهم فى السنة الماضية ، فخرجوا إلى السجن بالجيزة ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات والسماجات ، وخرج الخليفة إلى الجيزة وأقام يومين حتى رأى الجماعة فضحك منهم واستظرفهم[٤] . وكان للناس عند خليج الخور مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم . وفى سنة ٤١٥ هـ كان ثالث الفتح فاجتمع عند كنيسة المقس خلق كثير من النصارى والمسلمين فى الخيام للأكل والشرب واللهو ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهنّ فى قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره[٥] . ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد فى الثامن من مايو ، وكان النصارى يلقون فى النيل

---

(١) كتاب الديارات ص ٣٧ ب .
(٢) مجلة المشرق ج ٩ (عام ١٩٠٦) ص ٢٠١ .
(٣) كتاب الديارات ص ٢١ .
(٤) المقريزى ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسبحى .
(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٦ .

فى هذا العيد تابوتاً من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة إلا بهذا . وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا ، وكان يرحل إليه عالم عظيم للفجور واللهو والفسق ، وفيه يصرفون أموالا لا تحصى ، وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن الثامن[1] .

وكانت أعياد رأس السنة ثلاثة :

١ — عيد رأس السنة الفارسية والشامية وهو أول الربيع .

٢ — « « « القبطية بمصر ، وهو فى آخر أغسطس .

٣ — « « « الهجرية ، وهو منتقل فى أثناء السنة الميلادية .

وكان إلى جانب هذه الأعياد آثار رأس السنة الفارسية القديمة ، وهو فى وقت الانقلاب الصيفى .

وكانت العادة بالإجمال أن يُحتفل بعيد النيروز — وهو مبدأ السنة الشمسية — بتبادل الهدايا ، فكان الخليفة فى بغداد يفرّق على الناس أشياء منها تماثيل مصنوعة من عنبر ، منها ورد أحمر مثلا[2] . وكان رسم ملوك السامانيين ببخارى أن يخلعوا فيه على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية[3] . وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام[4] . وفى هذا اليوم كان أصحاب السماجات يظهرون بين يدى الخليفة فينثر عليهم الدراهم ، وكانوا يقتربون منه للقطها ، حتى يحكى أنه دخل إسحاق على المتوكل فى يوم نوروز وأصحاب السماجات بين يديه وقد قربوا منه حتى جذبوا رداءه ؛ فغضب إسحاق وخرج فأمر المتوكل بردّه وسأله

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) كتاب الديارات ص ٢٢ ب . (٣) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٧ .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٦٨ .

فقال له : أتجلس فى مجلس يبتذلك فيه هؤلاء الكلاب حتى يجذبوا ذيلك ، وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة فما يُؤمن أن يكون فيهم عدو فيثب بك ، فمتى كان يُستقال هذا ولو أخليت الأرض منهم ؛ فقال المتوكل : يا أبا الحسين ، والله لا ترانى على مثلها أبداً[1] . وكانت العادة فى رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء ، وقد مُنع ذلك فى المشرق عام ٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م[2] . على أن البيرونى يتكلم عن الرش ووجوده عام ٤٠٠ هـ[3] . ويحكى لنا الرحالة الصينى وانج ين تى (Wang-Yan-te) الذى طاف بالمشرق بين عامى ٩٨١ م ، ٩٨٣ م عن أهل مدينة طرفان (كانتشانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس ويملؤونها بالماء ويرش بعضهم بعضاً ، وقد يمزحون أحياناً فيرشون الماء بأيديهم ، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج ويدفعون الأمراض[4] . وكان العامة بمصر فى النيروز ينتخبون رجلا يسمونه أمير النيروز ، يطلى وجهه بالدقيق أو الجير ويركب فى الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر ، ويسير معه جمع كبير فيتسلط على الناس فى طلب رسم رتبة وفى يده دفتر مثل دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يُرشّ بالماء ممزوجاً بالأقذار ، وكان الناس يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع ؛ الفقراء فى الشوارع والأغنياء فى دورهم ، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك ، وإن غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فإما أن يفتدى نفسه وإما أن يفضح ، كان يرش الناس الماء فى الحارات ، ويحيى المنكر فى الدور أهل الخسارات . وكان التلاميذ فى مكتبهم يهجمون على معلمهم ، وكثيراً ما يرمونه فى البئر حتى يفتدى نفسه بالمال ، وفى عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٥ م منع السلطان من رش الماء ، وفى عام ٣٦٣ هـ

(١) كتاب الديارات ص ١٥ أ — ب .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٤٤ .

(٣) الآثار الباقية ص ٢١٨ ، ٢١٨

(٤) JA, 1847, I. P 58.

— ٩٧٤م أبطل الخليفة هذا العيد ولكنه عمل فى العام الثانى على أكبر صورة ، وقد استمر يؤدب الناس ثلاثة أيام فلم ينفع التأديب[١] . وظل جارياً فى كل عام حتى أبطله السلطان برقوق فى اواخر القرن الثامن الهجرى[٢] . ونستطيع أن نتبين فى العادة الجارية بمصر أنها تشبه عيد الكرنفال شبهاً واضحاً ، لأن أيام الكبس التى تنتهى بها السنة القديمة عند الجميع يكون الأمر فيها لأمير من الغوغاء ، وهى تسير مع النيروز ، وتتمشى مع القمر متنقلة فى التقويم[٣] . وقد بقى من آثار الاحتفال برأس السنة الفارسية رش الماء حتى عام ٤٠٠ هـ[٤] ، ولا يزال الرش بالماء يعمل إلى اليوم عند النصارى فى عيد الصعود ، ويسمى (خميس الرشاش) إلى اليوم[٥] ، وقد رأيت الرشاش بنفسى فى بغداد . وثمّ عيد يسمى عيد الكوسج وهو يشبه عيد الكرنفال ، ويومه يكون مع الأيام الخمسة التى تكبس بها السنة الفارسية ، وكان الاحتفال به فى وقت من الأوقات يكون فى آخر فبراير ؛ ولكنه وقع فى أول نوفمبر بسبب الكبس فى السنة الفارسية . وكان الكوسج يركب على بغل ويطوف الشوارع بالمدن الفارسية والعراقية ويطالب الناس ، فمن تأخر فى دفع ما عليه رشوا عليه ما يفسد ثيابه ، ويزعم البعض أن الله فى هذا اليوم يقدّر حظوظ الناس من سعادة أو شقاء كما كان الناس يعتقدون ذلك فى أول السنة قديماً ، وكانت هذه الأيام أيام اللهو والطرب وإظهار السرور عند الفرس[٦] .

---

(١) الولاة للكندى ص ٢٩٤ ؛ والمقريزى فى الخطط ج ١ ص ٢٦٧ ، «والنيروز بمصر فى أغسطس حيث يوقد الناس النار ويرشون الماء» انظر زيج قرطبة لسنة ٩٦١ م طبعة دوزى ص ٥٨ . (٢) الخطط ج ١ ص ٢٦٩ ، ٤٩٣ . (٣) وكذلك فى أوروبا فى الأيام التى بين ليلة الميلاد وليلة الفطاس ، ففى بعض أجزاء ألمانيا يضرب الأطفال آباءهم وأقاربهم فى عيد الميلاد ، وكذلك فى بلغاريا يضرب الخدم ساداتهم فى رأس السنة .

(٤) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢٦٦ . (٥) مجلة المشرق مجلد ٣ ص ٦٦٨ .

(٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١٣ ، والآثار الباقية ص ٢٢٥ ، والقزوينى على هامش الدميرى ج ١ ص ١٢٧ ، والثعالبى فى مجلة ZDMG, VI, s. 389 .

وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوما عيد المهرجان ، وكان يُعتبر أول أيام الشتاء ، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد ؛ وكان الناس تهادون كما يتهادون فى النيروز ؛ وكان القواد ورجال دار الخلافة تُخلع عليهم فيه ملابس الشتاء[١] ، وكان العامة يغيّرون فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس[٢] ، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان . وقد جاء المهرجان مرة وأبو إسحاق الصابى فى الحبس بأمر عضد الدولة ، فكتب إليه قصيدة وبعثها إليه مع درهم خسروانى وجزء من كتاب ، فكان مما قاله :

أتتك الهدايا فيه بين موفر ... على قدر المهدى وبين زهيد
فكان احتفالى فى الهدية درهما ... يطير مع الأنفاس يوم ركود
وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسى ... وتقييده بالشكل مثل قيودى[٣]

أما رأس السنة الهجرية فإنه لما كان متنقلا دائما ليس له موعد ثابت لم يصر عيداً من الأعياد الشعبية ، بل ظل عيداً فى قصر الخلافة لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه أيضا[٤] .

وكان من العادات بقصور العباسيين نثر الزهور ، وهى عادة أصلها يرجع إلى الأعياد الطبيعية ، ويحكى عن الخليفة المتوكل — وكان محبا للأبهة — أنه أمر أن تُضرب لذلك خمسة آلاف درهم وتُلوّن بالحمرة والصفرة والسواد وغيرها لتنثر على أصحاب الرتب بقصر الخلافة[٥] . وكان يصنع للخليفة بمصر قصر من الورد بقرية من قرى قليوب كان بها جنان وورود كثيرة ، وكان الخليفة يخرج فى يوم

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٦٥ ، والآثار البيرونية ص ٢٢٣ ، وديوان كشاجم فى كثير من المواضع . (٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٤ ، ومسكويه فى تجارب الأمم ج ٦ ص ١٦٣ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٥٨ . (٤) فيما يتعلق بشمال فارس انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ ، وفيما يختص بمصر راجع المقريزى ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩٢ .
(٥) كتاب الديارات ص ٦٨ .

يسمى يوم قصر الورد إلى تلك القرية متنزهاً ، ويخدم هناك بضيافة عظيمة[١] .

أما العيدان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر ، وكانا إلى جانب النيروز الفارسى أكبر الأعياد عند أهل بغداد[٢] ، وكان أهل البصرة يسمّنون الأضاحى سنة وأكثر ، ثم تباع لعيد النحر الواحدة منها بعشرة دنانير[٣] . ويحكى أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠هـ حمل يأنس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى ، وحمل أيضاً على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها فى شوارع القاهرة . وكانت تعمل أسمطة أخرى فى القصر يحضرها الخليفة بنفسه فى يوم عيد الفطر وعيد النحر ، ففى عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع فى سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند ؛ فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكّن الناس من ذلك السماط (مائدة طويلة) الممدود فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه[٤] . وكان هـذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالا رسميا ، وكان لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون الشعور الإسلامى فيها على أقواه مثل طرطوس[٥] ؛ حيث كان يأتى غزاة المسلمين من كل أنحاء المملكة الإسلامية حتى كان عيـداها يعتبران من محاسن الإسلام . ولما ضاعت من المسلمين طرطوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها[٦] ، وكان يُذبح فى عيد النحر حيوانات كثيرة[٧] .

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١١٧٠ (٢) . (٣) الأغانى ج ٣ ص ٦٢ .

(٤) المقريزى ج١ ص ٣٨٧ ، وأبو المحاسن ج٢ ص٤٧٣ وما بعدها ، ورحلة ناصر خسرو ص ١٥٨ من ترجمة شيفر ، وما حكى عن المسبّحى فى كتاب بكّر Becker, Beitr. zur Geschichte Aegyptens I. s. 71 ff.

(٥) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٤ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٦٧ .

(٦) المقريزى ص ١٨٣ .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ، ويحكى عن الوزير ابن عبّاد أن داره كانت لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تفطر فيها ، وأن صدقاته وقرباته فى هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة[١] . وكان ازدياد التكريم للنبى عليه السلام بين أهل الصلاح والورع سبباً فى أن صار يحتفل بمولده حوالى عام ٣٠٠ هـ ، وكان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى ، ويحكى عن الكرجى المتوفى عام ٣٤٣ هـ — ٩٥٤ م ، وكان من الزهاد المتعبدين أنه كان لا يفطر إلا فى العيدين وفى يوم مولد النبى عليه السلام[٢] . وفى القرن السادس الهجرى أبطل الأفضل بن أمير الجيوش أمر الموالد الأربعة ، النبوى والعلوى والفاطمى ومولد الإمام الحاضر[٣] . على أن أول من احتفل بمولد النبى عليه السلام احتفالا عظيما هو — كما يقال — الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلى المتوفى عام ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م ، وفى ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع إيثار الكلام فى قصة المعراج ؛ فكان ذلك عوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية[٤] .

وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان ، ولم يكن قد صار بعد عيداً « خاصًّا »

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦ .

(٢) A O O W. 37 Nr. 129 . (٣) الخطط المقريزى ج ١ ص ٤٣٢ .

(٤) الزرقاوى ج ١ ص ١٦٤ ، وكان يفد إلى هذا العيد الذى يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين بل من فارس ، منهم العلماء والمتصوفون والوعاظ ، والقراء والشعراء ، وهناك يقضون فى أربلا من المحرم إلى أوائل ربيع الأول ، وكان الأمير يقيم فى الشارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة بعضها فوق بعض ، تبلغ الأربع والخمس ، وزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الحبال حتى أعلاها ، ولم يكن للناس شغل إلا التمعى أمام تلك المناضد والتمتع بما يقدم لهم : وكان الأمير فى ليلة المولد نفسها يركب فى الشارع وبين يديه الشموع العظيمة كل منها مربوط فى بغل : وكان العيد ينتهى بموكب وولية (ابن خلكان طبعة فستنفلد ، ١ ٣

لأنه كان لا يزال محتفظا بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشباب عند القدماء ، وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً ؛ ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه فى سنة ٣٣٢ هـ ختن خمسة من أولاده وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام ، ونثر فى هذا الختان خمسة آلاف دينار عيناً ومائة ألف درهم ورقا ، وفرقت فيه دراهم وكسوة ، ويقال إنه بلغت النفقة فيه ستمائة ألف دينار[1] . وحكى أبو جعفر الجزار عن عام ٣٤٠ هـ — ٩٥١ م أنه فى هذه السنة « أمر إسماعيل بن القائم (الفاطمى) أن يُكتب له أولاد القواد ووجوه رجاله من كتامة ، والعبيد والجند وضعفاء الناس من أهل القيروان وغيرها ، ليُختنوا ويحسن إليهم بالكُسى والصلات ، فبلغوا أكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ فى ختانهم ، وعمل ولائم وأطعم خاصة الناس وعامتهم ، وأعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد إلى مائة درهم وأقل من ذلك ، فكان يُختن فى كل يوم من خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة ، فأقام على هذا سبعة عشر يوما ، قال أبو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من أهل الخدمة إنه أحصى ما أنفق فى هذا الختان فكان مائتى ألف دينار ، وحدث فى البلد عند ذلك من الإنفاق واللهو ما لم يُرَ مثله »[2] ، وكان أكبر عيد بقصر الخلافة فى القرن الثالث الهجرى عيد ختان عبد الله المعتز بن المتوكل ، ويقال إن المتوكل أنفق فى ذلك ستة وثمانين ألف ألف درهم[3] ، وهو مقدار يشبه ما يقال فى القصص الخيالية ؛ ولكن مصرّف الأقدار شاء أن يقتل هذا الولد الذى بلغ من محبة أبيه له وسروره به هذا المبلغ بعد حكم قصير وأن يقضى ابنه آخر أيام حياته فى فقر وآلام ، وأن يكون أميراً مغضوبا عليه .

وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل إلى جانب حفلات

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٠ ب . (٢) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين نمرة ٢٥٢ ب — ٢٥٣ ا . (٣) كتاب الديارات ص ٦٦ ا وما بعدها .

الختان ، فيقال إن نفقات زفاف هارون الرشيد بلغت خمسين ألف ألف درهم ، وإن نفقات زفاف المأمون بلغت سبعين ألف ألف درهم[١] . وفى سنة ٣١٠ هـ — ٩٢٢م قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة ؛ لأنها زوجت ابنة أختها من أمير كان مرشحاً للخلافة وأكثرت من النثار والدعوات حتى خسرت الأموال الجليلة[٢] . وكان العامة يحاولون فى هذه المناسبات أن يظهروا من الغنى أكثر مما عندهم ، وكان يمكن لهم أن يستأجروا الزينة والآلات والفرش[٣] .

وأخيراً كان من الأعياد يوم الاحتجام ، وفيه يهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ويُعمل له أجود الطعام[٤] ، وكان الذى يقوم بهذه العملية المزيّن ، وكان يعطى على ذلك حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ديناراً[٥] .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٦ ب .

(٢) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ص ١٩٢ أ من مخطوط باريس .

(٣) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١١٩ ، وانظر الفصل الخاص بالتجارة . وكان أول ما يؤكل فى حفلات الزواج بحسب عادة أهل بغداد طعام الهريسة (ديوان ابن الحجاج ١٠ ص ٧٩) ، وكان النثار أيضاً من العادات التى تعمل فى الزواج (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠) .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣٧٠ وكان بعض الكبراء يتخذ لنفسه مزيناً كويه ج ٦ ص ٢٤٧) .